وكانت الامبريالية البريطانية، منذ فترة مبكرة، قد أدركت مخاطر مفهوم الوحدة العربية إذا تحقق. لذا، عملت على ضرب محاولة محمد علي وابنه ابراهيم في أواخر القرن الماضي بلا هوادة. ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم، يحتل ضرب أية توجهات وحدوية في المنطقة العربية مرتبة هامة في المخططات الامبريالية المضادة لطموحات العرب القومية.

في إطار ما تقدم، تنبغي الاشارة، هنا، إلى أن السياسة الامبريالية ذاتها أخذت تطور من أساليبها، للتكيف مع الظروف بما يتلاءم وروح عصر النهوض القومي لبلدان الشرق وعموم ما يسمى بالعالم الثالث. وحين نتطرق إلى الحديث عن تحديث الامبريالية لاساليبها، فإن ذلك يعني بالضرورة تغييراً في تكتيكاتها بما يتلاءم وتمرير أهدافها من غير ضجيج. فعلى سبيل المثال، لجأت الامبرياليات الاوروبية، في مطلع هذا القرن، إلى تفتيت المنطقة العربية، المعروفة بسوريا الكبرى، من خلال الديبلوماسية السرية (اتفاقية سايكس ــ بيكو السرية والتي كشفت أسرارها الثورة البلشفية)، وسعت إلى فرض التجزئة الكيانية عليها بالقوة، وكرّست ذلك كحقيقة واقعة. وأما في الفترة التاريخية اللاحقة، فقد لجأت هذه الامبرياليات إلى تحديث أساليبها حيث تحتل الاتصالات السياسية والوسائل الديبلوماسية دوراً هاماً في سياساتها إلى جانب الوسائل الاخرى بما فيها العنف، والالتفاف الديماغوجي على التطلعات العادلة للجماهير الشعبية نحو تحرير أوطانها من التبعية للأجنبي.

في بلاد الشام، كان مهد أفكار الوحدة العربية بمفهومها البرجوازي، وقد سادت هذه الافكار في أوساط البرجوازية الصغيرة، ووجدت لها مكاناً في أوساط القوميين العرب (دعاة القومية العربية)؛ وذلك في مواجهة الاقليمية (Regionalismus)[٢٦]، والتي كرسها تطبيق اتفاقية سايكس ــ بيكو، آنفة الذكر. وفي هذا السياق، فإن أفكار الوحدة العربية قد حملت، في ذلك الوقت، طابعاً تقدمياً معادياً للاستعمار وتواقاً للاستقلال الوطني. وقد شعر الوطنيون العرب في نضالهم من أجل الاستقلال، إلى عقد عدة مؤتمرات وطنية، رفضت مقرراتها الوصاية والتبعية للاستعمار وهدفت إلى تعزيز التضامن بين الشعوب العربية. وكان نضال الشعب الفلسطيني نقطة مركزية[٢٧]، التف حولها الوطنيون . ومن خلالها، عاد مفهوم الوحدة العربية، يطرح نفسه من جديد، وبشكل أقوى وأكثر إلحاحاً. وذلك لقناعة الوطنيين العرب، آنذاك، بأن الوحدة هي الطريق الأجدى لحماية فلسطين.

مفهوم السياسة البريطانية للوحدة العربية:

جهدت بريطانيا في البحث عن صيغة ملائمة لإحكام سيطرتها على المنطقة ومواجهة خطر أي منافسة دولية محتملة. ولتحقيق ذلك نشطت باتجاهين: الأول، ويسعى لربط الدول العربية بمعاهدات إفرادية مع بريطانيا، كما حصل في كل من مصر (مشروع صدقي ــ بيفن)، والعراق (مشروع جبر ــ بيفن)، اللذين تم اسقاطهما بفضل انتفاضة الجماهير المصرية والعراقية ضدهما[٢٨].

الثاني: وقد تجلى في المحاولات البريطانية الساعية إلى ربط الدول العربية «جملة» في اطار أحلاف ترتبط مع بريطانيا بعلاقات سياسية واقتصادية وعسكرية. وفي الوقت نفسه، تأخذ هذه الأحلاف ظاهرياً، شكل التنسيق بين الدول العربية ذاتها، بينما هي تدار فعلياً من قبل الساسة البريطانيين.